موقع اللغة العربية في الفكر العالمي

أ. د. مروان المحاسني(*)

لقد استفاق العالم الحديث على حقائقَ مرعبةٍ بدأت تحتل مكانةً مُقلقة في وجدان الشعوب ألا وهي انحسارُ موقع بعض اللغات في مجالات التعامل العالمية، واندثارُ بعضها بعد نِزاعٍ مرير امتدَّ أقل من بضع عشرات من السنين.

ذلك أن نشرة اليونسكو عن اللغات(1) قد دقت ناقوس الخطر حين أدرجت ما يقارب ألفين وخمسمئة لغة في قائمة اللغات السائرة في طريق الاندثار خلال القرن الحادي والعشرين، وأثبتت في تلك القائمة أن اللغات الحيَّةَ اليوم لا يتجاوز عددها سبعة آلاف لغة.

وقد أثبت هذا الإحصاء أن كلّ لغة لا يستعملها عدد يفوق عشرة آلاف متكلم محكومةٌ بالانقراض، إذ إنها تبدأ بالانحدار متى لم يتجاوزْ عددُ الناطقين بها المئة ألف متكلم، وقد تبين أن خمساً وخمسين بالمئة من اللغات في عالم اليوم لا يتكلم بها أكثرُ من عشرة آلاف متكلم.

إن التاريخ قد عرف عدداً من اللغات سادت بقعةً كبيرة من المسكونة ثم انقرضت إلى غير رجعة، كاللغة الحثّية في بلاد الرافدين، واللغةِ الأتروسكية التي بُنيت روما على أرض أصحابها، ولغاتِ جزيرة كريت في

(*) رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق.

(1) www.unesco.org/culture/fr/endangered languages

البحر المتوسط، ولغةِ المايا في أمريكا الجنوبية، ولغةِ أهل وادي السند، واللغةِ الفارسية القديمة.

إنها لغات انتقل أصحابها إلى لغة أخرى أتتهم إما غازيةً، أو محمولةً على زخم ثقافي جارف لم تصمد لغاتهم أمامه.

وهكذا فقد بقيت بعض هذه اللغات محفوظةً في نصوصٍ منقوشة مازال الباحثون يجدّون في حلِّ ألغازها المجمّدة في رُقم وصخور، على حين اختفت لغات أخرى لم يَهتدِ أصحابها إلى نعمة الكتابة التي تمثّل مستند الديمومة في عالم دائم التغيّر، فهي لغاتٌ لأقوامٍ عرفتهم البشرية عن طريق لغاتٍ غيرِ لغاتهم.

ليست اللغة العربية مهدَّدةً بالزوال، فهي اليوم في عداد اللغات الاثنتي عشْرة التي يتجاوز الناطقون بها المئة مليون متكلم، تلك اللغات التي تُمثّل بمجموعها خمسةً وأربعين بالمئة من سكان العالم. واللغة العربية من اللغات القليلة في العالم التي يزيد عمرها على ألفي عام، باستثناء بعض اللغات المكتوبة التي بقيت قائمة بعد أن طرأت عليها تغيراتٌ كبيرة، كاللغة الصينية أو اليونانية.

إلا أن لغتنا تواجه اليوم تحدياتٍ جسيمةً أهمُّها عولمةُ الاتصالات والمبادلات التجارية، والهجراتُ البشرية الناتجة عن دوافع اقتصادية تُبعد الأبناء عن أوطانهم فيفقد الأحفاد لغة آبائهم.

يقول لويس ماسينيون: إن اللغة العربية وُلدت جاهزةً لا طفولة لها، وكأنها الإلهة مينرفا التي وُلدت من رأس جوبتر شاكيةَ السلاح.

والحقيقة أن أصحاب اللغة حين دخلوا بلاد الشام، وقد كانت حينذاك حَيّزاً ثقافيًّا تملؤه لغاتٌ عروبية قديمة كالأكادية والكنعانية والآرامية والسريانية، كانوا يحملون لغةً غنية اشتهرت بشعرائها وخطبائها، وأذكتها الدفعة البيانية الإيمانية التي حملها القرآن الكريم إليهم.

وكان أن بزغت في بلاد الشام تباشيرُ انفتاح فكري كـان القـرآن الكـريم منطلقَه المرجعي، وذلك بما تتضمّنه آياته مـن حـثٍّ علـى التفكّـر، واعتمـادٍ على العقل، وتوضيحٍ لموقع الإنسان في الخليقة. وهكذا فقد انفتحـوا علـى الحضارات السابقة والمعاصرة، وانكبّوا على توضـيح دقـائق لغـتهم لتكـون قادرة على استيعاب العلـوم، ووضـعوا المقـابلات المناسـبة للمصـطلحات الأعجمية، وقد اعتمـدوا دراسـةً تحليليـة لقواعـد اللغـة ومنطلقاتهـا أساسـاً لتفهّم ما يحيط بهم من معطيات علمية وحضاريّة ومعيشيّة.

إنه الانفتاح الفكري واللغوي الذي أتاح للفاتحين العرب الانتقالَ مـن بـداوة مفترضة إلى قمـم حضـارية أضـحت اللغـة العربيـة الحامـلَ المتميـز لمكوناتهـا، فنشرت العلوم والأفكار في أركان المعمورة منـذ القـرن الإسـلامي الأول، حتـى كان لكل من دمشق وبغداد إشعاعٌ معرفي امتدَّ حتى تخوم الصين.

أما حركة الترجمة التي انطلقت من دمشـق وبلغـت أوجهـا فـي بغـداد فهـي التي أتاحت لهم الإفادة من الحضارات القائمة في حواضر قديمة: كجنـد يسـابور وحرّان وبابل، يغترفون منها ما يضيفونه إلى ما أخذوه من علوم اليونان.

فحركة الترجمة من اليونانية إلى العربية تؤلِّف مرحلةً حاسمة في تـاريخ البشرية جمعاء، وهي تعادل في أهميتها أثينا بريكليس، أو النهضة الإيطاليـة، حتى الثورةَ العلميةَ الأوربية في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

ويجدر بنا في هذا الصـدد أن نـذكر حركـةً مماثلـة كـان لهـا أثـر بعيـد فـي الحضارة العالمية، هي تلك الترجمةُ المعكوسة للنصـوص الأرسـطية وسـواها، من العربية إلى اللاتينيـة، حـين كانـت أوربـا فـي القـرن المـيلادي الثـاني عشـر تتطلب نوعاً جديداً من المعرفة، مستقلًّا عن التعليم الكنسي الذي كان يقـوم بـه رجال الدين، وهـو مـا كـان يُطلـق عليـه المدرسـانية Scolastique، فـإن ترجمـة

النصوص العربية إلى اللاتينية قد أعادت إلى اللّغة العربية عِلْميَّتَها وعالميَّتَها وجعلتها المرجعية المعتمدة في بناء الحضارة الأوربية نظراً لما ضمَّتْه من معطيات معرفية مفسِّرةٍ للنصوص الإغريقية.

لقد كان مشروع الترجمة في دمشق وبغداد مشروعاً عربيًّا علميًّا وفلسفيًّا يقصد سبْرَ أغوار العلوم المعروفة في ذلك العصر مستنداً إلى المنهج الأرسطي، هادفاً إلى «التقدّمِ بالمعرفة لا مجرّد تكرارها عن طريق الاستظهار الببغائي» كما قال الكندي فيلسوف العرب[٢].

وهكذا حملت اللغة العربية إلى الآفاق روحاً موسوعية تجلّت في أعمالٍ سطَّرها أمثال ابن سينا والرازي وابن الهيثم، برز فيها ما أصبح يُعرف بالفكر العلمي، أي: المنهج العلمي، الذي مكّن أولئك المؤلِّفين من إضافة تجاربهم الشخصية إلى كل فرع من العلوم، فقد كانوا يتدرّجون من التجربة إلى الاستقراء، إلى القياس، وصولاً إلى البرهان. هذا هو الخط الذي اتّبعه جابر بن حيان في الكيمياء وابن الهيثم في البصريات والبيروني في الأوزان النوعية وفي توصيف الجاذبية الأرضية، وكلُّها كشوف ثمينة تَمّ بناء العلوم الحديثة عليها. إنها مؤلَّفاتٌ صيغت بلغةٍ تَعمَّق العربُ في دراستها، وأشبعوها تحليلاً وتدقيقاً على أيدي الخليل بن أحمد ومن تبعه من اللغويين من أمثال ابن جني والزجّاج وكثيرٍ غيرهم. وقد توّج السيوطي ذلك المجهود في القرن الهجري العاشر بكتابه المنهجيّ «الأشباه والنظائر في النحو»[٣] اعتمد فيه منهاج علوم الفقه

(٢) ديمتري غوتاس: «الفكر اليوناني والثقافة العربية» ص٢٠٣ مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٣.

(٣) جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) الأشباه والنظائر في النحو - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٦.

مستنداً إلى القياس، حسب قولهم بأنَّ «النحو هو العلمُ بمقاييسَ مستنبطةٍ من استقراء كلام العرب»(٤). وبذلك فقد جعل العرب من لغتهم أداةً طيّعة حمّلوها نتاج فكرهم المنفتحِ على جميع الثقافات، ناشرين الروابط والتقاطعات بين مؤلَّفات شملت مساحاتٍ واسعةً من المعرفة البشرية على امتداد قرون عديدة، فقد أفادوا في تأسيس بنائهم العلمي والحضاري من رُكام حضاراتٍ أصابها الركود، وبقيت علومها حبيسة الكتب والمخطوطات.

وبذلك قامت على أيدي العرب حركةُ تطويرٍ شامل للفكر القديم حين أصبحت اللغة العربية لغة عالمية قادرةً على استيعاب العلوم القديمة كافة، وتمكنوا من إقامة منهاج علمي بنوه على مقوّمات عقلية، وصبّوا جهودهم في طَيّاته ليدركوا ما خفي في علوم القدماء، حتى استطاعوا الارتقاءَ إلى مجالات الإبداعات الشخصية، التي مكنتهم من ابتكار علومٍ وفنون جديدة خاصةٍ بهم أصبحت بعدها تراثاً إنسانيًّا بقي العالم يغترف منه كلَّ جديد، وانبثق منه فكرٌ علمي أوربي ابتداء من روجر بيكون وصولاً إلى ديكارت.

ذلك أن العلوم الإسلامية دخلت أوربا في القرن الميلادي الحادي عشر على أيدي جربير دوريّاك الذي ارتقى السدة البابوية باسم سلفستر الثاني، وقسطنطين الإفريقي وجيرار الكريموني، وهم من مدرسة سالرنو التي اختصت بترجمة النصوص العربية إلى اللاتينية، وذلك قبل بروز اللغات الأوربية المنشقة عن اللاتينية، وكان أن أُنشئت جامعة مونبلييه في فرنسا وجرى تدريس الطب فيها باللغة العربية عام ١٠٢١ للميلاد من قبل عرب كانوا يعملون في مدرسة سالرنو للترجمة.

لقد يَسّرت اللغة العربية المنطلقة من تلك المنطقة الواسعة التي

(٤) لمع الأدلة ص٩٥.

وحّدتها الدولة العربية الإسلامية، والممتدة من أواسط آسيا إلى جبال البيرينيس، يسّرت التواصل والاتصال تجاريًّا وثقافيًّا، وبذلك مهّدت للآراء والأفكار أن يتحرر تنقّلها بعد أن أقبل المثقَّفون على تعلّم العربية أو انكبوا على البحوث المترجمة عنها..

وهكذا نفذ تأثير الحضارة العربية الإسلامية المحمولة على لغة لا حدود لاشتقاقاتها وطواعيَتها إلى أصقاع بعيدة عن مركز انطلاقها، فانتقلت عبر صقلية وإسبانيا إلى المناطق الأوربية الأخرى، واكتمل إشعاعها على أيدي أمثال فريدريك الثاني في القرن الرابع عشر، والملك روجر الصقلّي في مطلع القرن الثاني عشر، وقد أبديا شغفاً حقيقيًّا بكل ما هو عربي، وكان في البلاط الصقلي عددٌ من العلماء العرب وأهمهم الإدريسي الجغرافي في عهد الملك روجر الثاني.

وبعد قرنين من إنشاء جامع قرطبة الكبير الذي نال إعجاب الأوربيين ظهرت الكاتدرائيات الكبيرة في فرنسا وألمانيا، ولعلها استوحت من عظمة ذلك المسجد تصوراً لما يجب أن تكون عليه أماكن العبادة المسيحية.

إن تأثير الآداب العربية في الفكر الأوربي لم ينقطع بعد عصر النهضة حين عادت أوربا إلى تعرُّف بالحضارات القديمة عن طريق الترجمات العربية. ولذا رأينا كيف أفاد الشاعر الإيطالي الكبير دانته من فردوس أبي العلاء المعري، وكيف اندفع الشاعر الألماني غوته وصديقه هردر إلى دراسة الشعر العربي وشعر المعلقات بخاصة، ويكفي أن نذكر التأثير الواضح للمعلقات السبع في ديوان غوته الغربي الشرقي، وقد قال في رسالة إلى صديقه شلوس: «من المحتمل ألا توجد لغةٌ ينسجم فيها الفكر والكلمة والحرف بأصالةٍ عريقة كما هي الحال في العربية»(٥).

---

(٥) غوته: رسالة إلى / H.Schlosser/ في ٢٣/ ١/ ١٨١٥.

كما أننا نرى كيف اقتفى دانيال دي فو أثر ابن طفيل حين ألَّف كتابه (روبنسون كروزو) على منوال قصة حيِّ بن يقظان. ويمكننا كذلك تصوّرُ وجودِ صلة بين النزعة الإنسانية التي تجلّت في أعمال التوحيدي ومسكويه في القرن الرابع الهجري، وبين النزعة الإنسانية الأوربية التي تمثّلت في أعمال إراسموس في القرن الخامس عشر الميلادي، وهي تتركز في الاهتمام بكل ما يخص حياة الإنسان الفكرية والعملية بعيداً عن التصلُّب العقائدي، مع الإصرار على إعطاء القيم الإنسانية مكان الصدارة.

إن اللغة العربية قد استقطبت إلى جانب أبنائها نخبةً من المفكرين والباحثين من أعراق مختلفة وجدوا فيها مجالاً ممتازاً، وجهازاً لغويًّا كامل التكوين يكفي لإشباع رغباتهم في متابعة العلوم والولوج إلى المقومات الفلسفية للفكر الإنساني، ومنهم من ساهم مساهمةً كبرى في تطور اللغة التي اعتمدوها وسيلة عالمية تحمل أرقى منتجات الفكر البشري.

وانتهى الأمر إلى استحواذ اللغات المجاورة كالتركية والكردية والفارسية على عدد كبير من الألفاظ العربية المعبّرة عن الأمور الفكرية المجرّدة وعن الأحاسيس والمشاعر، ولم تستطع القرارات السياسية إقصاء هذه الألفاظ عن تلك اللغات حتى يومنا هذا. وبرزت لغات هجينة كالهاوسا والسواحلي تعتمد اللغة العربية في معظم مجالاتها، وقد اطّلعتُ على كتاب حديث تُرجم عن الصينية إلى الإنكليزية أثبت فيه مؤلِّفه وجودَ ما يزيد على ألف كلمة عربية في اللغة الصينية.

إن كل لغة تعطي الناطقين بها صورةً عن عالمهم هي صورة مُوشّاة بكل حرف من حروف الكلم، تتناثر حولها فُويرقات بين المعاني، وتتّسق مع المختَزن في المخيال الفردي والجماعي لتعطي كلَّ فرد مجالاً حياتيًّا يأنس به ويَطبعُه بطابع ذاتيته الثقافية ليحقق هويته.

نحن أبناء لغة نتمتع بجمالياتها ونغوص في أغوارها شاكرين لمن سبقنا حسن صنيعهم في الحفاظ عليها، مؤكدين عزمنا على خدمتها بما يوصلها إلى التطابق مع معطيات العصر.

ستكون اللغة العربية لغةً عصريةً إذا نحن بذلنا المجهودَ اللازم لجعلها متجاوبةً مع كل حداثة، ولن نصل إلى هذا الهدف إلا بعد إيقاظ علائق المحبة بين المتكلم وبين مفردات لغته الجميلة وتراكيبها المُعبّرة البليغة.

لا ينكِر موقعَ اللغة العربية في الفكر العالمي إلا كلُّ جاحد لا يقيم وزناً لحقائق التاريخ، ويتنكّر لكنوز تراث امتدَّ عدةَ قرون منارةً يهتدي بها كل متشوّق إلى العلم، وبقي حيًّا في وجدان كل باحث يهتم بتطور الفكر البشري.

إن ألدّ أعداء اللغة العربية أبناؤها الذين يقبلون الانجراف في عولمة عاتية مدمّرة للثقافات، فيخرجون لغتهم من حياتهم الفكرية بل ومن حياتهم اليومية.

وإن المؤتمرات حين تكون محمولةً على موجة من القناعات تشحذ الهمم، وتحرك السواكن، هي من أفضل السبل التي تعيد اللغة العربية إلى وجدان الأمة لغةً ناضجة ذاتَ أبعادٍ لا متناهية مفتوحةً على رياح المستقبل.

❊ ❊ ❊